International Jordanian Journal Aryam for Humanities and Social Sciences; IJJA
Volume1, Issue1, 2019

The Image of the Desert in Popular Poetry and Its Impact on Society

D.r khatwat Aleifa

Ammar Thlijy University, Laghouat (Algeria)

Received: 2/1/2019
Revised: 20/2/2019
Accepted: 17/3/2019
Published online: 20/3/2019

* *Corresponding author:*
Email:
aifa.khatoui03@gmail.com

***Citation: Aleifa**.K.(2019). **The Image of The Desert In Popular Poetry and Its Impact on Society**. International Jordanian journal Aryam for humanities and social sciences; IJJA, 1(1).*
https://doi.org/10.65811/115

©2019 TheAuthor(s). This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution 4.0 International (CC BY 4.0) license.
https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/

International Jordanian journal Aryam for humanities and social sciences: Issn Online **2706-8455**

Abstract: This study attempted to investigate the image of the desert in popular poetry. This type of poetry was truly its reflective mirror and its own record that preserved its heritage and popular memory. Thus, the desert and its images occupied a wide area of popular poetry and sat on its throne, so that popular poets wandered through its vast expanses and sang of its reality. Spatial space in all its dimensions, they traversed its valleys and valleys day and night on arduous and arduous journeys and dangerous adventures. In the atmosphere of this vast desert, the popular poet soared with a wild imagination. He photographed the wonderful images of the desert whenever his eye came across. He photographed the stars and planets and sang of the moon and its beauty, the tent and its holiness, and the horses and camels and their companions. Just as the desert was the companion and companion of the popular poet, he broadcast to her his worries and suffering, so his poems were heavy with images.

Keywords: **Image of the desert**, **popular poetry**.

صورة الصحراء في الشعر الشعبي و أثره على المجتمع

الباحثة خطوي العيفة

الملخص: حاولت هذه الدراسة تقصي صورة الصحراء في الشعر الشعبي، فكان هذا النوع من الشعر حقيقة مرآتها العاكسة، وسجلها الخاص الذي حافظ على تراثها وذاكرتها الشعبية، فشغلت بذلك الصحراء وصورها مساحة واسعة من الشعر الشعبي وتربعت على عرشه، ليتجول الشعراء الشعبيون في فجاجها الشاسعة فراحوا يتغنون بواقعها المكاني بكل أبعاده ،فقطعوا فلواتها ووديانها ليلا ونهارا في رحلات شاقة ومضنية ومغامرات خطيرة . وفي أجواء هذه الصحراء الواسعة، حلّق الشاعر الشعبي بخيال جامح ، فصوّر كلما تقع عليه عينه من صور الصحراء الرائعة، فصوّر النجوم والكواكب فتغنى بالقمر وجماله والخيمة وقداستها، والخيول والابل وصحبتها كما كانت الصحراء أنيسة الشاعر الشعبي ورفيقته فبث لها همومه ومعاناته، فجاءت أشعاره مثقلة بالصور المعبرة والمحملة بهموم الذات، ومعاناة الجماعة .

وعلى الرغم من ذلك العناء، فإنّ الشاعر الشعبي كان يميل إلى خلق صورة جميلة تجعل من الصحراء جنة يعيش فيها بصفاء أيامها عندما تغيب الشمس وترمي بأشعتها على الرمال الناعمة التي لم يمش عليها أحد فتلمع كالذهب وتندرج الألوان عند غروب الشمس والكائنات التي تعيش في الصحراء، فلا بد من أن تكون صورة مثل صورة الجمل الذي نسميه بسفينة الصحراء، لأنّ الله خلقه ليتكيف مع الصحراء وظروفها الصعبة، فكل شيء في الصحراء يتميز بالجمال، فألهمت الشعراء الشعبيين، فتغنوا بجمالها أبدعوا في ذكر صورها المختلفة .

الكلمات المفتاحية: صورة الصحراء، الشعر الشعبي.

المقدمة

الصحراء فضاء يرفض القيود ولأنّه كذلك، كان هناك من يرى أنّ احتلاله فعل حضاري يخدم الانسانية نداء من الصحراء إلى المنقذ الذي افتتن بها وعشقها عشقا كبيرا، هذا الفضاء الساحر المثير للأطماع دخل الأدب والفن من أوسع أبوابهما، ألهب الخيال وحرّك المشاعر والالهام ... كل من أدرك أنّها مزرعة للمجاز حافلة بالدلالات المشعة وحده مسكونا بشساعتها الممتدة والمنفتحة على كل الوظائف الممكنة، استلهاما فنيا وفلسفيا .

فالإبداع الشعري الشعبي استطاع أن يرسم صورة بليغة للصحراء كفاعل مؤثر لشخصيتها تستمد سلطتها منها، تتحرك داخلها شخصيات أخرى ترغب الخروج منها ولا تستطيع

فما هو مفهوم الصحراء ؟ وماهي أهم صورها التي جسدها الشعر الشعبي الأصيل ؟

في تحديد المفهوم:

الصحراء لغويا: هي "الأرض المستوية في لين وغلظ، ويضيف اللسان، وقيل : الصحراء هي الفضاء الواسع ولا نبات فيه، حسب ابن سيده والصحراء من الأرض: مثل ظهر الدابة الأجرد، ليس بها شجر وجبال ملساء ويقال أيضا أصحر المكان إذا اتسع ، وأصحر الرجل اذا نزل الصحراء .

وهكذا يقودنا المدخل اللغوي إلى الخروج بقناعة دلالية أولى وهي أنّ الصحراء مكون جغرافي يؤسس للاختلاف بين عالمين: عالم الألفة مقابل عالم الوحشة والعزلة ممّا يدعو إلى اعتبار الصحراء من حيث الاختيار الفني ، فهو يعيش الصحراء ويحياها كمجال للممارسة الاجتماعية والفنية

لأنّ الصحراء من منظور مرئي مكتسب عبر المشاهدة والاطلاع قد تتلخص في أوصاف ثلاثة هي : شموخ الصمت، براءة النور، عري الامتداد، فضاء صامت وممتد وعار يسود فيه نور خاص به منبعه الشمس

وقد ذكر الجغرافيون العرب أسماء كثيرة لصحاري الجزيرة العربية، مثل صحراء أثير، صحراء البيداء وصحراء بينونة، وصحراء ترعب، وصحراء الخلة، وصحراء عمير، وعكاظ، وكل واحدة من هذه الصحاري وغيرها موجودة إما في الأحقاف (الربع الخالي)، أو عالج (النفود)، أو الدهناء، أو غائط اليمن (النوتي، ٢٠٠٨م).

وقد حاور الشاعر الصحراء فجاء هذا الحوار الذي جمعه بالصحراء في قصيدة بعنوان "أنا و الصحراء" في لوحة تعريفية جميلة جدا من خلال هذه المحاورة:

من أنت أيتها الصحراء ؟ أنّا الجبال منبطحة وقد صرعتها الأقدار

ألست شيئا اخر ؟ أنا بحر ماتت أمواجه وتقمصت رمالا

كيف أنت و الأفق ؟ أرى في نجومه رمالي ويرى فيا شمسه

والعبقرية ؟ أنا أذنها التي تلتقط أصواتها التي لا يلتقطها الناس

والمرأة والحب ؟ أنا ليلى ومجنونها .....وجميل وبثينة

والجمل ؟ هو رفيقي القديم ، أحبه و يحبني ، ويعانق صبره صبري

هذه الرمال فيك ماهي ؟ هي حبات قلبي

فحاولوا الاقتراب منها للقبض على هذا السر المختفي وراء ما تبديه عبر الحديث عن حكاية الانسان في الصحراء، لأنّ الذي يكمل الغرابة هو تمكن الانسان من خلق وجود في ظل الصحراء الصامت اللانهائي (حسني، الصحراء والسنما، فضاء التيه، فضاء الكشف، ١يونيو ٢٠٠٨م).

والصحراء شأنها شأن أي فضاء كلي، كالمحيطات وطبقات الجو والجبال، والبلدان، لا يمكن احتواؤها أو توصيفها من خلال بقعة ما منها، لذا فهي ليست مكانا محددا، ولا مساحة معلمة تستطيع أن تؤشر إليها أو أن تحتويها، إنّما هي خلاء واسع مشغول بالفراغ، لذا فالإطلاقة سمة من سماتها الأساسية، جعلتها منفتحة على تكوينات ببنية مختلفة وغير متجانسة، حبة الرمل اللامتناهية في العدد، إلى جوار صخور الجبال، وغالبا ما تجد تداخلا بين تكوينات هذا الفضاء الواسع حتى يبدو اللاتناسق هو الغالب على حياة الناس والأحياء الموجودة فيها (النصير، ١سبتمبر ١٩٩٩).

وهذه الفنانة الألمانية ريكاردا كونسل والتي عرفت بحبها الشديد للصحراء، فهي ترى في هذه الصحراء لغة فنية فريدة غنية مستمدة من الطبيعة، كأنّها معزوفة موسيقية توقعها الرياح والأحجار، والصحراء بهذا المعنى تمثل الاتساع في كل شيء، في الحب والعطاء والجمال والهدوء والحزن والفرح، ومن المشاهد البديعية التي نشعر بقيمتها الإيقاعية منظر الشمس وغروبها وتعاقب الليل والنهار، هناك الإيقاعات المتمثلة في طبيعة الصحراء حيث تتكرر الكثبان الرملية بلا نهاية، ومجموعة الأحجار المتناثرة، ونلاحظ أيضا عنصرا مهما وهو الدراما المرئية من خلال تحديد العلاقة بين تفاصيل البيئة الصحراوية، وإيجاد علاقات ثنائية وثلاثية ورباعية بينها تذكرنا بأجساد منحوتة تتحرك وتهمس بلغة ساكنة مكونة شكلا بديعيا من أشكال الفن الصحراوي (الفتاح، ١أبريل ١٩٩٨م (.

ماهية الشعر الشعبي: الشعر عالم غريب لا أحد يستطيع التحكم فيه أو السيطرة عليه وجعله تحت تصرفه في أي لحظة من لحظات تفكيره، فالشعر ملازم للشعور والوجدان يطرق سمع الشاعر ولا يتشكل أمامه صورة ملموحة، بقدر ما يتغلغل داخل أحاسيسه وخفاياه ويسري نسائم باردة تحت جلده.

وللشاعر تقنية تتجاوب مع كل حدث ولا تستغرب له، والشعر سواء كتب باللغة الفصحى أو باللهجة العامية فهو كلام رقيق يلامس العواطف، ويقع في القلوب الموقع الحسن، ويتغلغل داخل المشاعر والأحاسيس نغما هادئا

فالشعر الشعبي هو: "الشعر المجهول المؤلف، العامي اللغة، المتوارث جيلا بعد جيل بالرواية الشفوية" (نصّار، ط ٢ ، ١٩٨٠م). فهو قديم قدم وجود الانسان على هذه الأرض مرسوم في نظرات العيون، منثور فوق الشفاه ، وهو جسر يعبر منه الحب إلى القلوب، يأتي من غير مقدمات يمطر سماء الشاعر بزخات قوية من قطراته ويتركه بعد ذلك مذهولا من المفاجأة، له أساليبه وخصائصه ومن مميزاته أنه يتسم بالبساطة والعفوية، وهما صفتان متلازمتان له فهو سلس رقيق المعاني، قريب إلى القلوب والأسماع، يبدع فيه الشاعر صورا جميلة .

وعنه قال أحد الأدباء الغربيين وهو" أناتول فرانس" في كتابه الحياة الأدبية الشعر الشعبي أثبت بالبراهين القاطعة أنّه الشعر الأول المعبر (محمد، : الشعر الشعبي ماله وما عليه).

فكان خير وسيلة تلقائية تعبر به الشعوب الصحراوية عن ذاتها بكل حرية وطلاقة وعفوية ، فهو التعبير الصادق الصادر من نفس صادقة وعاطفة جيّاشة عن أحلام الانسان الصحراوي وتطلعاته وآماله في الحياة .

ومن القصائد الشعرية الشعبية الرائعة، والتي مدحت وأثنت على الحياة البدوية، ومجدت نمط العيش على الطريقة الصحراوية، تحت شمس الفضاءات الرحبة، وعلى رمال الصحراء، وتبرز هذا النمط من الحياة، تحت الخيمة في هدوء الليل، لا أحد يعكر صفو تلك البهجة النابعة من نفس الرجل الصحراوي المترعة بالقناعة والبساطة يقول فيها الشاعر :

البدوي في أرض الفساح راه مخيم حوله شيء ما يعكر عليه سكوت

في النهار غير خوار الجمل وفي الليل غير عواء الذيابة وملك الموت

داره قطعة قماش مبسوطة بعظام مغروزة في الرمل

إذّا أمرض المشي دواه وإذّا حب يكرم ضيوفه ، يجيب غداهم وغداه

يخرج يصيد النعام ولغزال (صورة المجتمع الجزائري)

ويقول أيضا في صورة مدحية للصحراء

خمسطاعش في شهر مارس زدت أنا *** ألف وتسعمية متورخ وثلاثين

ذاك العام الربيع والصحرا زينة *** في ذاك التاريخ ناسي رحّالين

كانت البل والغنم في كسبنا *** وأيامات ملاح في الصحرا زينين

بكري كانت في المهاري نفحتنا *** واجحافات مع لرواح المكرودين

فأحب الشاعر الشعبي الصحراء وتمنى لها الخير والسعادة، وهذا ما لمسناه في قصيدة الشاعر الجزائري الخثير بن السايح في قصيدته المعنونة بـ "صحرتنا" يقول فيها:

يا عالم بالخفى ما سمعو حد ***يا من بابوياك ما عليه بوّاب

يا من تحي إلي لحمو رشى دود ***وتدخل فيه الروح بعدن ما كان تراب

هاذ الشاعر راه فيه سامر راه وقد *** وطامع فيك اليوم يطلب يا موجاب

ما عندي لا نعجة ولا معزة تولد *** وما عندو وديان يحرثها وشعاب

طالب منك قا ذي الصحرا تسعد *** وتتباشر بيها الناس إليقوّاب

هاتلها رحمة تعود نتاعت ود *** ومزن الرحمة كي يكون عليها صاب

فشعور شاعرنا طافحا مدرارا لا تماثله إلاّ صورة أمطار الرحمة الربانية التي تنثال متدفقة من أبواب السماء فتعيد للطبيعة روحها وتبدأ الحياة في الانبعاث في كل شيء، ومن جمالية التصوير الفني أنّ عملية التكوين تُرسم مراحلها لحظة لحظة في تدرج واضح بكل دقة، من بداية نشوء تشكل السحب إلى صورة تدفق الأمطار وسريانها بالأودية إلى الانبات في الطبيعة (شعيب ا.، الدّيوان المثير للشّاعر ابن السايح الخثير).

ويواصل الشاعر الخثير الحديث عن الصحراء، من خلال ذكره لبعض أنواع النبات التي كان يستعملها البدوي للتداوي والعلاج:

يخضار إلي كان عودّه يتكدد *** يابس من ذ الجفا ولى ثقاب

ويخضار إلي ذبل ورقه كشرد *** مرخه يجبى والثمار نتاعه طاب

العجرم والشّيح والرّمث يورد *** والمثنان مع العذم غطّى لسهاب

والفيجل وكداد والصر مع النقد *** وفي الربيع القلقلان يدير ضباب

درين وعرفج والجعيدة كان تعد *** يدّاوي منها العبد إلي مصاب (السايح)

كما تأثر الشاعر الشعبي بما آلت إليه الصحراء من أوضاع صعبة للمعيشة فيها فهذا الشاعر أحمد بن يحى بن الزبدة في قصيدة رثائية على أحوال الصحراء في قصيدته "يا حصراه على الصحرا ما وسات"

يا حسراه على الصحرا ما وسات ***وخلاتنا قالموايرتفكارة

ولاحتنا حتان رحنا قاع اشتات ***وكانت بالخيرات عنا ستارة

راحت عنا كي لميمة ما وصات ***وخدعتنا فيها الموت القدارة

هي ماتت واعيالها تاه اجفيات ***وتاه من المحنة يمينه ويساره

وكانت عنا ضو عالي واروقات ***وبيه سكنت في جبلها حيدارة(شعيب)

تحسر الشاعر الشعبي عن الصحراء، وما آلت إليه بعدما كانت مصدرا للنماء والعطاء، كما نلاحظ العلاقة الحميمية التي تجمع بين الشاعر والصحراء، فهو يشبهها بالأم التي تركت أولادها بدون وصية .

فالإنسان الصحراوي كان قانعا راضيا بحياته البيسطة الخالية من كل التعقيدات، ففي هذه البساطة كان يجد سعادته وفرحه. يقول الشاعر :

لكن هاذ المسلم راه سعيد وفرحان راضي بمكتوبو ويحمد في مولاه

الشمس موقدي ودفايا ونور القمر شمعتي الضواية

حشيش الأرض مالي وربحي وغنايا وحليب النوق غدايا

صوف غلمي هي لباسي وين ما الليل عسعس ، نرقد ، نحط راسي

فبصمت الصحراء كمكان جغرافي حياة الانسان العربي، وأثرت في سلوكاته وتصرفاته، ولاشك أنّ محاولة فهم ابداع الانسان لا بد أن تمر بفهم أثر هذه البيئة الصحراوية، ودورها في فرض نمط العيش أهم صفاته عدم الاستقرار والترحال المستمر والدائم بحثا عن ظروف أحسن للعيش، وشظف العيش، والمزاج الغنائي الحزين والشعور بهشاشة الكائن البشري أمام عظمة الصحراء وقسوتها.

فقالت العرب عن الصحراء: أنّها مفازة، وسميت بذلك لأنّه من خرج منها وقطعها فاز وذلك لشدة خطورتها، لذا فقد رصد الشاعر الشعبي الصحراء في أوقات شتى يتبين فيها مواضع الحياة من كلأ وماء، ولكي يتعرف السبل واضحة أمامه ويرتاد أماكن الحياة والخصومة، والأمر كما يبدو ليس بالسهل الهين فطبيعة الصحراء المخيفة دون ذلك، ولا سيما أنّ عوامل الإعاقة كثيرة، ففي بطن هذه الجرعاء المخيفة أعداء يتربصون وحيوانات مفترسة تتضور جوعا، وفيها أيضا الكثير من عوامل الهدم الطبيعية، مثل الأمطار والسيول والرياح والرمال التي تطمس المعالم والدلائل، وأرجائها المترامية مسكونة بالضياع، وحافلة بالمجهول فكان العربي يفاخر بمعرفته طبيعة الصحراء (النوتي، : الصحراء في الشعر الجاهلي).

فالصحراء مكان تاريخي حافل بالدلالات في ذاكرة الشعر الشعبي، فهي أرض الأجداد، وموطن التجربة الحضارية الأولى، مهبط الوحي ومهد الرسالة المحمدية، كما أنّها تغطي نسبة ثمانين بالمائة من مساحة الوطن العربي وفي حضنها نشأ أكبر عدد من شعرائنا الشعبيين الذين افتتنوا بها فكتبوا لها الأشعار (رماني،، ٢٠٠٧م).

ومن أهم صور الصحراء التي تناولها الشعر الشعبي:

القمر : كان القمر ولا يزال ملهم الشعراء منذ الأزل، ونديم العشاق، فوصفوه بأرقى العبارات، وأجمل الصفات، اذ سحر الشعراء بروعة جماله كونه رمزا من رموز الجمال والنقاء، وكثيرا ما نجد الشاعر الشعبي يقرنه بجانب الغزل اذ شبهه بالحبيبة.

وهذا ما لمسناه في قصيدة الشاعر الجزائري ابن مدينة الأغواط عبد الله بن كريو في قصيدته: "قمر الليل"

قمر الليل خواطري تتونس بيه *** نلقى فيه أوصاف يرضاهم بالي

يا طالب عندي خليلة ليه شبيه *** من مرغوبي فيه سهري يحلى لي

نبات نقسّم في اللّيالي ننظر ليه *** يُفرقني منه الحذّار التّالي

خايف لا بعض السحابات تغطيّه *** ويذا غاب ضياه يتغيثر حالي

ويقول الشاعر بن سهلة أيضا في القمر :

يا شبيهة شعاع القمرة *** والمشتري مع الزهرة

مضرور منك ما نبرى ***

ساهر في الداج حزين
صابر لمولى القدرة ***

لله رب العالمين (سهلة، ١٩٨٩م)

الجمل:إنّك تنظر إلى الجمل فترى منه، حاضرا صورة، ثم تظهر في خيالك مع هذه الصورة صورة أخرى لا تستطيع أن تمنع ظهورها، تلك صورة الصحراء إنّهما صورتان متلازمتان.

فالجمل ابن الصحراء والصحراء موطنه، والجمل خلق ليعيش في الصحراء، والمخلوقات توائم أوطانها فهو دابة الصحراء الوحيدة، تحمل الرجال وتحمل الأثقال، وما كان لغير الجمل من الحيوانات أن يقطع الصحاري (عاكف، مارس ١٩٦٧م). والجمل بالنسبة للإنسان الصحراوي كان بمثابة المحور الأساسي الذي تدور حوله الحياة الصحراوية، ولولا الجمل ما كان للحياة البدوية أن تقوم لها قائمة، إنّ الحياة البدوية ما كان لها أن تكون لولا الجمل الذي بواسطته استطاعت بعض القبائل الصحراوية التأقلم والعيش وسط الصحراء وظروفها الطبيعية القاسية (دواس، صفحة ٤٢(

يقول الشاعر بن السايح الخثير في قصيدة: "لا لي قارح"

لالي قارح موش في السّابق مبيوع *** متربي في البر هو وامّاته

لحجل نقطع بيه ذا البر الميس *** و ذا المهجوم قلال محسوب نعاته

باين ولد نياق عيّي وأم ضروع *** يطوي لرض تقول واحد ما فاته

نصفاو لسعدون وحويلي مزروع *** يا جملي يعوّه تنهاته

يا جملي ها شوف ذا الدمع المفروع *** من عيني واد عايم بقلاته

سكنوا قلبي جاوني في وسط ضلوع *** يتلمسهم دايما في دّقاته

يا سوّالي موش ساهل هذا النوع *** وفرقتهم تكوي الواحد في ذاته

واحد منهم قال ع الصحرا ونجوع *** راح دون وداع درقت خلاته

وركب ثاني كي نا قارح مرتوع *** قطاع دقاديق ذي من صفاته

فيه أوصاف نتاع جملي ذا المبيوع *** وقليل اللّي كي هذوم يواتو(السايح، صفحة ٤٧)

ويقول أيضا في وصف الجمل المهري :

وين المهري جامل الصفات الكل *** مقصادي نديه ذ الخطرة نافح

راسه لايب في السّماقا صاري طل *** وتاه العرّوج ب عشاره مايح

موّبرلكتاف شانق موش اخطل *** مجرود الحزان في المشية ناصح

باهي الذّروة والسنام تقول جبل *** مترفع ساطوروجنابه ماسح

زبده زبد الواد هايج متهوّل *** ثلجا كدّى فوق كيفانه راكح

شيّه لاح على القوارب زاد شعل *** فاتوه القرحين سنّه يتراوح

عنده نقة للرّعد كي تتمثّل *** يزّايم مهجور والهاته طايح

فحل الفحول نظن ما مثلوش فحل *** عينه حمرة دم عن كف الذّابح (السايح، صفحة ٤٧)

فالجمل كان أحد أهم وأشهر الحيوانات التي تستوطن الصحراء، ويلقب بسفينة الصحراء لقدرته الفائقة على التكيف والتأقلم مع طبيعة الصحراء القاسية .

الجبل :

يقول الشاعر الشيخ السّماتي في قصيدة " جبل كردادة "

إتحوّل يا كاف كردادة وارحل *** درّقت اعليّ اجبال الطوّايا

دون اغزالي ما لقيت امنين انطل *** غيمك طاح ارواق خبّلت اسداي

يا شامخ الأطواد خايف لا نختل *** في وطنك ونعود للناس اشفايا

(شعيب ا.، الدّيوان العاتي للشّيخ السّماتي مع إمارة العشق من المسار إلى الانهيار، ط١، ٢٠١٢م)

ففي جو الانفعال الذي يعيشه الشاعر والتوترات التي تنتابه جراء هذه الحالة الشعورية التي يعيشها، فأنس لعناصر الطبيعة المحيطة به، فأنسن الجبل وجعل منه انسانا يحاوره، يخلع عليه صفات انسانية ويجعل منه كائنا يقف حائلا بينه وبين من يحب.

الخيل :لقد لعبت الخيل دورا هاما في حياة الانسان الصحراوي، ممّا أثر وجودها في حياتهم في لغتهم وتفكيرهم وطباعهم، فألهمت الخيول أخيلة الشاعر الشعبي فأبدع في وصفها وتغنى بها في الكثير من أشعاره.

فكانت حياة البدوي ترتبط ارتباطا وثيقا بالخيل لما لها من فضل عظيم، وما جعل الله تعالى فيها من العز والشرف لقوله تعالى: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم" (الآية : ٦٠،سورة الانفال).

يقول الشاعر الشيخ السماتي في وصف الخيل:

إذا كنت اعزيز والطّلبة تقبل *** نطلب ربّ ما يشفيشعدايا

يكمل لي في طلبتي ما نتأمل *** لزرق سيد الخيل يعمل مرضايا

أصله من صيلين والصّيل ينسّل *** محمود الخصلات واللّون امهايا

معلوف بلا كيل دور العام اكمل *** معلوفات الصّيف للسّير احكايا

إذا فزامثيل بابورامعوّل***ماشيناتالنّار وسطه قدّايا

الصاري ب قلاع للريح يميل *** ريّاسة بالبوشطة عزموا غاية(السماتي).

ويقول في وصفها أيضا الشاعر الهلالي عزيزي أحمد الحسني مظهرا خصال الخيل العربي وصفاته في قصيدته "الحصان العود"

به نعول وين مرادي نحتال *** يطوي كدر فال ومروق الطوال

يا حزني على العود ما فات ومازال *** من قديم زمان شايع بخصاله

مركوب الهمّة إلليفاجي لعلال *** يتفخر مولاه يربح من فاله

ما يتنوى ما يقولش راح الحال *** هبّات من الريح نعطيك مثاله

سرجه بالمجبود وركابه شعال *** يا مزين ذاك الشليل وتدلاله

والخيل من الخير ما لا له مثيل *** وإللي يذم الخيل ما يعرف والوا

فالخيل موروث عريق، ورمز للشجاعة والبطولة، فاشتهر العرب بحبهم للفروسية والاعتناء بخيولهم الأصلية واعتبروها فرد من أفراد عائلتهم، فكانت محل افتخار العربي، فالخيل صديقه في حله وترحاله.

فوصف الشعراء الشعبيون مميزات الخيول وما تقدمه من فوائد لخدمة الانسان الصحراوي فوصفوها وصوروها في أحسن تصوير، يقول الشاعر في رائعة من رواعه في وصف فرسه :

وراه العود جمام عمره ما ينقص *** ومرفوع الوجبة يواتيالقنايا

والعنق مسلس راية أعقادإدّاوس *** والجلد أملس كأنّه فص مرايا

وسبيب الرقبة قماره مدّاكس *** حرير مخلص نيّروه السّدايّا

يتقزول في السّير في الفزّةيهمص *** في صبحة خليت لقواط ورايا نقلا

صورة النخيل :

يقول الشاعر خليفة قادة يصف جمال النخلة وتمايلها مع هبوب الرياح:

اتوحشت ارفاقي واموالي *** وحب الصحرا زادني حبّه تجراح

اتوحشتانخيلها في العشوية *** وعند غروب الشمس تصفارو لبطاح

ذيك الناظرة والرمل كدية كدية *** ظهروا فيه أمواج كي هبّت لرياح

والنخلة بدلالها تتمايل ليّا *** بعراجنهازايدة للزين أشباح

مزين دقلة نور صفرا ذهبية *** طعمها للمريض من ضره يتلاح

وخيّال خيم الشعر في عينيا *** وقت المغرب نورهم بادي وضّاح

ذيكالصورة كأنّها لوحة حيّة *** راسمها فنّان بألوانه لّماح

(شعيب ا.، الصحراء والأنواء في الشعر الشعبي ، ٢٠٠٣م)

ويقول أيضا :

برّ النخلة إن شاء ليس يخلى *** مولاها ما يجوع في الدنيا محال

اتمر فيها حلو كي عسل النحلة *** وطيّب من غير ما تطيّب كول احلال

الغرس مع النوّى مصيل مع الدقلة *** مولاها نحسبوه من راس الأموال

وحتى النظرة تعجبك فيها تحلى *** من قلبك تقلع الهموم يريح البال

شوف العرجون تعجبك فيه الغلّة *** نص العرجون طايب ونصو مزال

منين تضيق زورها واعمل طلّة *** في الحوض انتاعها تريح فيها اظلال

إنّ الصحراء هي موطن النخيل وذكر الصحراء مرتبط دائما بالإشارة إلى النخيل، فقد كانت النخيل على مدى العصور هي رمز للصحراء، فكانت النخلة لوحة فنية ألهمت مخيلة الشاعر الشعبي فأبدع في وصفها.

الخيمة :هي المقام الذي أحبّه الانسان البدوي، فهي رفيقة دربه في حله وترحاله يأخذها معه أين ما اتجه ،وقد قال فيها الشاعر الأمير عبد القادر :

لا تذمن بيوتا خفّ محملها *** وتمدحن بيوت الطين والحجر

فكان هذه الخيمة تأويه حر الصيف ، وبرودة الشتاء وقد قال الله فيها عزّ وجل: "والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتّاعا إلى حين" سورة النحل الآية ٨٠.

وقد قال الشاعر خليفة قادة في وصف الخيمة :

يا خيمة راني فيك متعجب *** يا دهمة يازينة القنطاس

هذي دار بلا حجر ولا قالب *** وين بغيت اديرها ما تحفر ساس

ما تحصل في بنيانها ما تتعب *** هات اعصي هزهم بيها وخلاص

واذا جات النّو لو تظل تصب *** ارقد هاني ما يخشكش الوسواس

فيها حطّة صح حياة لعرب *** إذا عاد الرّبيع نوارو فقاس

خير وبراكة للخاطر يطرب *** لإبل ولغنم فالية عنها قناس

البنات يجو ذي تشد وذي تحلب *** والعام مساوي كل نعجة تحلب طاس

يقرب للخيمة يصيب احذاها أقرب *** وماهم بارد ما يزيدو قلاص

الصحراء وحليب في الشكوة طيب *** ازريزة ودهان وارفيس يا رفاس

خليفة قادة على الخيمةجايب *** ومن الحب انتاعهاعندو حماس

محلها بستارها عنها رايب***والعطوشمقابلوا حطة واخلاص .

ويقول فيها أيضا الشاعر أحمد الزبدة :

بيت أم ستارين نده وفراشات ***كسبت مال كثير فات العبارة

في المعذر تلقى المحاصنو العودات *** واجلدات مع أمات الخوارة

فرسان البارود جودة من لبات *** ويشيراتينزهو عرم القارة

مقيومة من كل جهة بأروقات *** وسبع قلقات عنها دوّارة

وتجيها من كل جهة والنحيات *** بيت كبيرة ما تعاير دفارة

مبنية بيت الزمل في الجهة جات ***كل ليلة ضيفة خلاف الخطارة

وتقول الشاعرة بنت الريف في وصف جمال الخيمة وابن الخيمة:

ابن الخيمة ياك ما يدرقش إبّان *** سوّل قاع الناس تعطيك نعاتو

الكرم والجود عادات العربان *** من بكري معروف شاعت خصلاتو

ارضو مخروفة مرتع للغزلان *** غرب وشرق تميّط مجدل أماتو

وبيتو مبنية بحرير وكتان *** وما تفرزشافليج داكن نسجاتو

ومتن لطنابمسوية نشان *** ومقيس لوتادفالارضابداتو

افراشات اخمل ولعمور ألوان *** وقعدات المرقوم راحة لوقاتو

امركز ع الصح والعماد امتان *** وتايقبالقنطاس بان شيعاتو

وامشرعها ديما فاتح البيبان *** وما حطش روّاق النيل بياتو

احسب ربعة فصول وربيعو يزيان *** وما يتغير شمسوغطاتو

ومورد بنواع نابت البستان *** وزارع فيه ثمار تحمل غلاتو(شعيب ن.)

الغزال : ولقد شبه الشاعر المرأة بالغزال واصفا حلاوة عينها بعيني الغزال حيث يقول في قصيدته :" الريم "

بالك تحسبني على الريم نغني *** بيّا ريم بنات في زينه غاية

غزالي ماهوش في الصحرا جاني *** ولاهو راتع في مهاميد عراية

متربّي في حوش متمّتع هاني *** ناسه ماردّوا نبا للشرّاية

يا مزين ذاك الغزيّل عاجبني *** يا محلاه بعين مقدود حكاية

عمري ما نشتيه يدرق عن عيني ***كل مسا وصباح مرصود حذايّ

فبسبب جماله تغنى به الشاعر الشعبي لامتلاكه عيونا جميلة وواسعة، وما يمتلكه من طبيعة جسمية تجعله يتكيف مع البيئة الصحراوية لرشاقته وخفته، وجمال لونه الذي يشبه الكثبان الرملية الذهبية.

معجم القصائد الشعرية:

هناك بعض الكلمات التي تبدو صعبة في بعض قصائد الشعر الشعبي، ولذلك حاولنا شرحها.

دهمة= هي كلمة شعبية متداولة بمعنى سوداء.

القنطاس= مثبت عمود الخيمة ويأتي في الوسط .

ما يخشكش = لا يدخلك.

فقاس = بمعنى متفتح .

إزريزة = عبارة عن أكلة شعبية شهية جدا ومن مكوناتها (التمر و مادة تصنع من اللبن وتسمى الكليلة مع إضافة السمن)

الرفيس = هو كذلك أكلة شعبية متكونة من التمر والسميد والسمن .

الغرس = نوع من أنواع التمور.

بر = مكان.

خـــاتمـــة

إنّ الشاعر الشعبي احتضن الصحراء، وهي بدورها احتضنت كلماته وحمتها، وفي الصحراء تبدع الكلمات وترسم متاهات غير مرئية ومدنا وسط الرمال، وهذا معناه أنّ الكتابة الشعرية تخترع طرقا يصعب النفاذ إليها وذلك هو لغز الصحراء ولغز الكتابة عنها لأنّ الشعر الشعبي هو الشعر الذي لا يحتاج فيه القارئ إلى استعمال المعجم لفهم كلماته، فهو يعبر عن مختلف مظاهر الحياة بأسلوب مبسط بساطة الصحراء ذاتها، وعاطفة صادقة وتصوير بديع ، وحركة موسيقية رنانة، بسيطة بساطة الطبيعة التي يعيش فيها.

حاولت هذه الدراسة تقصي صورة الصحراء في الشعر الشعبي، فكان هذا النوع من الشعر حقيقة مرآتها العاكسة، وسجلها الخاص الذي حافظ على تراثها وذاكرتها الشعبية، فشغلت بذلك الصحراء وصورها مساحة واسعة من الشعر الشعبي وتربعت على عرشه، ليتجول الشعراء الشعبيون في فجاجها الشاسعة فراحوا يتغنون بواقعها المكاني بكل أبعاده، فقطعوا فلواتها ووديانها ليلا ونهارا في رحلات شاقة ومضنية ومغامرات خطيرة.

وفي أجواء هذه الصحراء الواسعة، حلّق الشاعر الشعبي بخيال جامح، فصوّر كلما تقع عليه عينه من صور الصحراء الرائعة، فصوّر النجوم والكواكب فتغنى بالقمر وجماله والخيمة وقداستها، والخيول والابل وصحبتها، كما كانت الصحراء أنيسة الشاعر الشعبي ورفيقته فبث لها همومه ومعاناته، فجاءت أشعاره مثقلة بالصور المعبرة والمحملة بهموم الذات، ومعاناة الجماعة .

وعلى الرغم من ذلك العناء، فإنّ الشاعر الشعبي كان يميل إلى خلق صورة جميلة تجعل من الصحراء جنة يعيش فيها بصفاء أيامها عندما تغيب الشمس وترمي بأشعتها على الرمال الناعمة التي لم يمش عليها أحد فتلمع كالذهب وتندرج الألوان عند غروب الشمس والكائنات التي تعيش في الصحراء، فلا بد من أن تكون صورة مثل صورة الجمل الذي نسميه بسفينة الصحراء، لأنّ الله خلقه ليتكيف مع الصحراء وظروفها الصعبة، فكل شيء في الصحراء يتميز بالجمال، فألهمت الشعراء الشعبيين، فتغنوا بجمالها أبدعوا في ذكر صورها المختلفة .

والذي يجد نفسه منجذبا لسماع هذا النوع من الشعر الذي يعبر عن أحاسيسه ووجدانه.

شكلت الصحراء فضاء مناسبا لتجسيد حالة الفراغ والصمت والغرابة في الشعر الشعبي الذي يعتبر جزءا هام من الذاكرة الشعبية، ومقوّم أساسي من مقومات الشخصية الوطنية فظّل المرآة الصادقة والعاكسة لما يعانيه الناس في البيئة الصحراوية.

زئبقية الصحراء متاهة يصعب الامساك بها، فهي غروب الشمس وشروقها وحبات الرمل الذهبية، هي السحر والجمال والإرث الحضاري المتراكم في أعماق الذات البشرية، والمتجذر في تراثنا وهي فضلا عن هذا كله، ذو نسق دلالي متميز مفتوح واسع، عميق، ممتد يثير أروع الصور لدى الرائي، الانطلاق والحرية الضياء والسعادة، التأمل والخشوع .

دلالة الصحراء تختلف باختلاف قربنا أو بعدنا منها ، وهكذا نجد أنّ سلبيته معناها تبنى غالبا على الموقع الرافض، حيث يتم النظر إليها باعتبارها مجالا للقحط والعطش، واللامعنى وقتل الحياة.

ليست الصحراء مغايرا للعلامة ولدلالتها، بل هي مكان مسمى نقطة، تتموقع على خريطة تحمل اسم الصحراء، صحراء الحمال والالهام، صحراء العراقة والأصالة، صحراء الصبر والتحدي صحراء الذكرى الاستمرارية .

الصحراء هي الفراغ الممتلئ بالضوء، فنحن لا نجد فيها إلاّ ما يحمله إليها، لأنّ أفراحنا وأقراحنا ترافقنا أين رحلنا، فكانت فضاء رحبا لبى حاجة الشاعر الشعبي في التعبير عن همومه الذاتية الابداعية.

بقدر ما أنّ الصحراء فسيحة تسع متخيلات الناس جميعهم، بقدر ماهي ضيّقة، ممّا يجعلها ترفض كل ما هو مزيف لا مكان للزخارف، لا مكان للتصنع، فالرياح والرمال والحصى والشمس والسراب والظمأ لا تترك للارتجال فرصة .

الصحراء وجمالها يمنحان الطمأنينة والسكينة والهدوء، فما أروع الصحراء عندما تغيب الشمس وترمي بأشعتها على الرمال الناعمة التي لم يمش عليها أحد، فتلمع كالذهب، واندراج الألوان عند المغيب .

رصد الشاعر الشعبي صورة مديحية للصحراء تعبيرا منه على موقف حب واجلال، وعلاقة ذاتية حضارية خاصة، بتصويره أبعادها الشاملة، وصياغة أعماق الذات الشاعرة في عشقها للمكان .

إنّ الصحراء سحر يشبه سكانها، الصحراء ليست ملكا لأحد، لأنّ الرحل ليسوا ملكا للأرض بل لشبيههم إنّهم مشدودون إلى كل ما يتحرك، ليس هناك ما يشدهم إلى الأرض لا الشجرة ولا البيت ولا الزرع . كل بيوتهم توجد على ظهور دوابهم، لا يتركون علامات على الرمال لأنّهم يعلمون أنّ كل شيء عابر كصورة سينمائية لا نحتفظ منها سوى بذكرى غالبا ما تكون أجمل من الواقع، لأنّ هذه الرؤيا تأتي من مكان أبعد من الواقع فالصحراء هي الحياة.

يعتبر الشعر الشعبي مصدر هام وأساسي من مصادر دراسة البيئة الصحراوية، فهو الذي كشف عن واقع الحياة الصحراوية بكل أبعادها، فالصحراء توحي لنا بالجذب والجفاف والرمل ، ولكنّها لا تفتقر إلى ألوان من الجمال الآخاذ الذي يبهج النفس .

البيئة الصحراوية توّحد المشاعر والصفوف، لأنّ الخطر الذي يحل بها يصيب الجميع، ممّا خلق جوا من التآلف والتعاون فيما بينهم.

إنّ البيئة الاجتماعية وأثارها جلية واضحة في الشعر الشعبي، وهذا ما لمسناه من خلال جمعنا للنصوص الشعرية الشعبية، فكانت بذلك لغة الشعر الشعبي لغة المجتمع الصحراوي التي يفهمها ويتفاعل معها.

قائمة المراجع

- نصّار، مصطفى. (١٩٨٠). الشعر الشعبي (الطبعة الثانية). القاهرة: دار المعارف.
- النصير، عبد الله. (١٩٩٩). الصحراء بوصفها فضاءً دلاليًا. بغداد: دار الشؤون الثقافية.
- الفتاح، عبد الكريم. (١٩٩٨). الفن والصحراء: قراءات جمالية. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- النوتي، محمد. (٢٠٠٨). الصحراء في الشعر الجاهلي. القاهرة: دار الفكر العربي.
- رماني، عبد القادر. (٢٠٠٧). الصحراء في الذاكرة الثقافية العربية. الجزائر: دار الهدى للطباعة والنشر.
- سهلة، محمد بن. (١٩٨٩). ديوان سهلة الشعبي. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- عاكف، حسين. (١٩٦٧). الجمل في الثقافة العربية. القاهرة: دار الهلال.
- شعيب، أحمد. (٢٠٠٣). الصحراء والأنواء في الشعر الشعبي. الجزائر: دار القصبة.
- شعيب، أحمد. (٢٠١٢). الديوان العاتي للشيخ السماتي: مع إمارة العشق من المسار إلى الانهيار (الطبعة الأولى). الجزائر: دار الوطن.